الجذور التاريخية للاستشراق وأثرها في الصراع الحضاري

الاستاذ المساعد الدكتورة
بـــان حســين السنجـري

إن الاستشراق في حقيقة الامر يمثل الخلفية الفكرية وجزءا لا يتجزأ من قضية الصراع الحضاري بين العالم الاسلامي والعالم الغربي . ولقد صدق من قال : ليس بالامر الغريب ان يختلف المستشرقون معنا نحن المسلمين في الرأي حول الاسلام وانما الغريب ان يتفقوا معنا في الرأي وذلك لان منطلق تفكيرهم بالنسبة الى الاسلام ونبيه يختلف عن المنطلق الذي يصدر عنه تفكير المسلمين . (زقزوق ، محمود حمدي ، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، دار المعارف ، ٢٠٠٨ ، مج١ ، ص٣٨) .

ان تاريخ الاستشراق هو تاريخ الصراع الذي دار بين العالمين الاسلامي والمسيحي على الصعيدين الديني والايدلوجي ، فقد كان الاسلام يمثل مشكلة بعيدة المدى بالنسبة للعالم المسيحي على كافة المستويات ، ومن يقرأ كتابات المستشرقين يجد ان في معظمها تفتقد الى الموضوعية عند الحديث عن الاسلام .

وان التشكيك بصحة رسالة الرسول الاكرم (صلى الله عليه وسلم) ومصدرها الالهي وانكار نبوة الرسول وسماوية القرآن من اهم مقاصد المستشرقين ، وان الدين ملفق عندهم من الديانتين اليهودية والمسيحية وليس من عند الله .

ويمكن القول ان دوافع اليهود للمشاركة في الدراسات الاستشراقية وخاصة المتعلقة في الحضارة العربية الاسلامية تتطابق الى حد كبير مع اهداف المستشرقين التي تحركهم وتوجه سلوكهم لتحقيق اهدافهم وغاياتهم للانتقام من الدين الاسلامي ولتجريد الاسلام من كل ميزة وفضل وتشويه حضارتهم بالتهم الملفقة وهي اهداف تتفق مع اهداف اغلبية المستشرقين (لويس ، برنارد، الاسلام والغرب ، مؤسسة الايمان ، ١٩٩٤، ص١٨-١٩)، ويمكن اختصارها بالدوافع السياسية والدينية والعلمية والتاريخية . وفي مقدمتها الاهمية

التي يحتلها القرآن في نفوس المسلمين وعقولهم وقلوبهم وهو محور الحضارة العربية الاسلامية ويعد المكون الاساس لها ومصدر استنباط مقاصد الشريعة ومرشد لاهل الحديث ويعتمد عليه الفلاسفة ، فتوجه المستشرقون اليهود لتوحيد جهودهم في نقد والهدم ايضا لاياته الكريمة ، فبعد ترجمته قاموا بنقد الروايات والقصص والافكار التي وردت فيه فضلا عن مقارنته بنصوص العهد القديم واثاروا الشك حول ايات سوره . وهذا ما رأيناه عند اجناس جولدتسيهر (١٨٥٠-١٩٢١) في مقالاته بحربه المستمرة على القرآن وحرصه الشديد على ادعاء استمداد الاسلام من اليهودية وتأثيرها فيه ، وانظم اليه الكثير من المستشرقين اليهود امثال هرتفج هرشفلد (١٨٥٤-١٩٣٤) وجوزيف هورفيتز (١٨٧٤-١٩٣١) . وبعد الهجوم على القرأن ومن ثم الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) اتى الدور على التاريخ الاسلامي ، فبدأوا بتلفيق الحكايات والخيال الواسع لهدم وتحريف ما يستطيعون فضـــلا عن كشف الجانب المظلم في التاريخ الاسلامي حسب تصورهم من خلال التطرق الى الحروب الداخلية ، كل ذلك لتحقيق تراثهم ومناقشة افكارهم لتزيين افكارهم (الزيني ، محمد عبد الرحيم، الاستشراق اليهودي ، ط١،٢٠١١، مصر ،ص٣٢٠) .

فالاستشراق علم بحث في الشرق الاسلامي : دينه وتاريخه ومذاهبه ولغته . وسائر مداخله للوصول الى الحقيقة بقدر ما تمكن مناهجه ، الا ان الجناية على العلم لما يتدخل الباحث بمذهبه فيما يبحث فيه وينتحل العلم لاجل معتقداته ويسخره في خدمة ايدلوجيته وهذا ما سار عليه الاستشراق اليهودي حتى اصبح له خط خاص يميزه من بين خط الاستشراق العام فضلا عن اتخاذ الاستشراق مطية يعبر بها اليهود خصوصا اصحاب التوجه اليهودي لصحراء الثقافة العربية ويجهزون على معالم الحضارة الاسلامية وهذا كان توجها واضحا عند كثير المستشرقين اليهود حيث اتخذوا من الاساطير اليهودية سبيلا لفرض اوهامهم على واقع الناس وظهر جليا في احتلالهم ارض فلسطين . وهذا الاتجاه كان يهدف الى التمهيد لمطامع الصهيونية العلمية والتي من اهمها وضع مخطط علمي وثقافي واعلامي من اجل اكساب الصهيونية وجودا شرعيا في فلسطين وحقا تاريخيا من

خلال تزوير التاريخ وفرض نظريات جديدة مفادها بأن اليهود شعب الله المختار واعلاء شأن الجنس اليهودي (الجندي ، انور- عالم الاسلام المعاصر ، القاهرة، مج٣، ص٣١٨).

وهذا ينطوي تحت عنوان اضافة الى عناوين كثيرة ، فأذا كان الاستشراق الاوربي يمثل الارضية التي استنبت فيها المشروع الصهيوني الذي تبلور اكثر من انطلاقه في تأسيس استشراقه الخاص ليتحول الاستشراق التقليدي الى استشراق جديد في مرحلة سيادة الامبريالية والذي يخدم الاستشراق التقليدي الاستعماري ، ويمكن القول ان الاستشراق اليهودي هو الخطاب السياسي والمعرفي والايدلوجي الممهنج لدولة اسرائيل الذي يختزل الفلسطينين والعرب .

ويرى البعض ان هناك تداخل بين الاستشراق الغربي واليهودي والصهيوني والاسرائيلي ، فالاستشراق اليهودي بدأ بدراسة الاسلام والمجتمعات الاسلامية مع انطلاق الاستشراق الغربي في القرن (١٨) ، الذي هيأ من خلال المعرفة كل الشروط لترجمة القوة وفرض السيطرة الاستعمارية على فلسطين ، ومن ثم ارتب بالحركة الصهيونية بهدف خدمة الحركة الصهيونية وتأصيل الوجود اليهودي في فلسطين . وبهذا التقى الدافع الديني للاستشراق مع الطموحات الصهيونية وحصول الانسجام الذي هدف الى اضعاف الاسلام وتشويهه

والتشكيك في قيمه عن طريق اثبات فضل اليهودية عليه والزعم ان اليهودية مصدر الاسلام الاول (السفياني ، عابد بن فهد ، المستشرقون ومن تابعهم وموقفهم من ثبات الشريعة ، ص٢٦) .

الا ان الاستشراق ليس سلبا كله اذ انه بمقابل الصورة البغيضة للاسلام ولم يكن الهدف منها هو عرض صورة موضوعية عن الاسلام ، كانت هناك جهود اخرى للوصول الى معرفة موضوعية في مجال العلوم العربية مثل الفلسفة والطب والعلوم المعرفية ، فحينما بدأ المستشرقون في دراسة الحضارة الاسلامية بدأوا بهدف معرفة الانجازات التي حققتها الامة العربية الاسلامية في مختلف العلوم . وهناك سمات واضحة في الاستشراق اليهودي اذ يتميز بعض هؤلاء المستشرقين بالارادة القوية والحركة النشيطة في السلم التعليمي وحققت تقدما في ميدان البحث العلمي واقبالهم على تعلم اللغات عامة واللغات

السامية خاصة ، ودراستهم الموسعة للغة العربية وفهم دلالة مفرداتها فضلا عن تعلم اللغة البرية وتدريسها ثم الكتابة بها وترجمة التراث العربي الاسلامي اليها خاصة والاعتزاز بها ومحاولة نشرها وبعثها من حفريات التاريخ (الاستشراق اليهودي ، ص٢٦٦) .

وان علماء اليهود بجميع اصنافهم وفنونهم عاشوا في ظلال الحضارة العربية الاسلامية وعاصروا نهضتها ، بالاضافة الى انهم كانوا جزءا من منضومة العلماء التي شاركت في تشييد قواعد هذه الحضارة . اذ ان الحضارة العربية الاسلامية هي نتاج كل الشعوب التي انضوت تحت لوائها وتكلمت بلغتها العربية ، وان الاسلام من اكثر الديانات ملائمة لاكتشاف العلم ومن اعضمها تهذيبا للنفوس وحملا للعدل والاحسان والتسامح (لوبون ، خوستاف ، حضارة العرب ، ترجمة : عادل زعيتر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،٢٠٢١ ، ص١٢٦) ، بالاضافة الا انهم كانوا ضمن منظومة العلماء المسيحين والمسلمين والاجناس المتعددة التي شاركت ايضا في تشييد قواعد هذه الحضارة سواء كانوا عربا ام غير عرب ، وتسامحت معهم ودعتهم للمشاركة في بناء المدنية حتى تقلد بعضهم مناصب رفيعة وقربهم الخلفاء : الامويون والعباسيون والفاطميون والايوبيون واستخدموهم في وظائف متعددة وكلفوهم بمهام كبيرة وخطيرة ولم ينظروا الى دياناتهم .

وبهذا الشأن يقول الشاعر المصري الحسن بن خاقان :

يهود هذا الزمان قد بلغوا ... غاية آمالهم قد ملكوا
العز فيهم والمال عندهمو ... ومنهم المستشار والملك (متز ، ادم ،الحضارة العربية الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، القاهرة ، ٢٠٠٠ ، ص٩٦) .

اذ ان لا احد يستطيع ان ينكر ان دوافع الاستشراق اليهودي حب الاستطلاع والمعرفة والرغبة في فهم جوانب الحضارة العربية الاسلامية والتعرف على فكرها وفلسفتها وعقائدها وفنونها وادابها فهي كتراث انساني يحظر بالاحترام من معظم مفكري العالم مثل مكدوجل (١٨٧١-١٩٣٨) الذي لقب بغريزة حب الاستطلاع ، الذي اثر بالمقابل ان اعتنق ديانتها رجال من اليهود والمسيحين . ويقول مصطفى السباعي (ت١٩٦٤) ((ان من المستشرقين نفر قليل جدا اقبلوا على الاستشراق بدافع حب الاطلاع

على حضارات الامم واديانها وثقافاتها ولغاتها ، كانوا اقل من غيرهم خطأ في فهم الاسلام وتراثه (الاستشراق والمستشرقون ، بيروت ، ١٩٩٩، ص٢٤-٢٥) .

على ضوء ما سبق فأن جهود المستشرقين اليهود بالامكان وضعها داخل هذا النطاق الكبير فعندهم خير كثير وشر مستطير وجهد مشكور وعمل منكور فلنأخذ ما يتفق مع مباديء وعقائد ديننا ولا ننسى توجيهات القرأن في اسلوب الجدل المحمود ومبادئه الحضارية في ادب الحوار والتصدي للسلبيات ، فضلا عن ان هذا الغزو الفكري الذي قام به الاستعمار والتبشير والاستشراق بكل وسائله وطموحاته وان استطاع ان ينال من المسلمين بأن يغريهم بالمطامع والحرية المطلقة والانفتاح ، الا ان العقيدة في نفوس المسلمين لم تستطع ان ينال منها شيئا .